مفهوم العدمية وتجلياته في فلسفة نيتشه

د. منال اسماعيل مرعي*

الملخص

هدف هذا البحث إلى تبيان موقف نيتشه الذي اتخذه من عدمية عصره، هذه العدمية التي مثلت الحدث الأصيل للحداثة بصورها ودلالاتها الميتافيزيقية كلّها.

وعلى ذلك كانت مهمتنا في هذا البحث الإفصاح عن مهمة نيتشه التي صرف جُلَّ جهده من أجلها وهي: إجراء التعديلات الجذرية والعميقة انطلاقًا من رغبته في القيام بعملية نقد معرفي للقيم العليا للحضارة الغربية، في الجوانب كلّها منها: الفلسفية، والأخلاقية، والعلمية وحتى السياسية، التي أدت إلى ما أدت إليه من سلب للوجود وسقوط للإنسان في هاوية الضياع الفكري، وكذلك من عرقلة لصيرورته المستمرة.

لذلك كان لا بدَّ من إظهار مواقف نيتشه الحقيقية وحاجته الضرورية لهذا النقد أولًا، ومن ثمَّ الانطلاق لتحقيق منظور موضوعي ومبرر لهذا النقد في هذا البحث، وأخيرًا وليس آخرًا توضيح إنسانية الإنسان العميقة في فلسفة نيتشه التي حاول نيتشه جاهدًا السعي نحوها.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الفلسفة.

The Concept of Nihilism and its Manifestations in the Philosophy of Nietzsche

Dr. Manal Ismail Meree**

Abstract

This research aims at showing Nietzsche's position on the Nihilism of his time, the Nihilism that represented the original event of Modernity in all its metaphysical connotations

Our task in this research will be to reveal the mission of Nietzsche, whose efforts will be devoted to: making deep and profound changes based on his desire to conduct a cognitive critique of the higher values of Western civilization in all its philosophical, ethical, scientific and even political aspects, which led to the looting of existence and the fall of the human in the abyss of intellectual loss and also the obstruction of his ongoing process. Thus, the true attitude of Nietzsche and his urgent need for this critique had to be showed, and then to move forward to achieve perspective objectivity and justification for this critique in the research, last but not least illustrate deep humanity in Nietzsche's philosophy which he tried hard to pursue.

** Damascus University, College of Arts and Humanities, Department of Philosophy.

المقدمة:

كانت نظرة نيتشه إلى أوروبا، وما لحق بها من انهيار للأخلاق، وانهيار لما بقي من الإيمان المسيحي بالله، وكذلك لصنم العقل إلا إشارة قوية تلقفها نيتشه، وطرق مطرقته للإنذار بها "**إنني أصف صعود النزعة العدمية إن ثقافتنا الأوروبية كلّها تتحرك نحو كارثة. فهي قلقة وعنيفة ومتسرعة: تشبه التيار الذي يريد بلوغ النهاية، والذي لم يعد يفكر، بل يخاف أن يفكر**"[1]؛ يقصد تلك العدمية التي تهدف إلى التشكيك بكل القوانين الاجتماعية الفاسدة التي نظّمها الإنسان عبر تاريخه من أجل مراجعتها وتبيان ثغراتها ومن ثم تجاوزها؟ فما الذي كان يقصده نيتشه بالعدمية في قوله هذا؟ وهل أصاب فعلًا في توصيفه لتلك الحالة الغوغاء التي تعيشها أوروبا؟ وهنا نكمل تساؤلنا : هل هذه العدمية تمثل عند نيتشه عدميةً فلسفيةً فقط أم أنها امتدت لتشمل العدمية الأخلاقية والاجتماعية والعلمية؟ بمعنى آخر: هل كان يقصد نيتشه بعدميته الفلسفية نظرةً نقديةً[2] للفلسفات العقلية كلّها منذ سقراط وما جلبته برأيه من قداسة للعقل وتحقير للحواس؟ أم كان يقصد عدميةً أخلاقيةً تسعى لنقد كل ما اعتقد الإنسان به على أنه قيمٌ أخلاقيةٌ مطلقةٌ ومقدسةٌ تجلت في الأخلاق المسيحية الأوروبية، أو ما قدمته من أخلاق قيمية إنسانية موضع نقد وشك، ومن ثَمَّ كانت رغبته في إعادة التفكير والتأمل بها من جديد؟، أم كان يقصد تلك العدمية التي تهدف إلى التشكيك بالقوانين الاجتماعية الفاسدة كلّها التي نظمها الإنسان عبر تاريخه من أجل مراجعتها، وتبيان ثغراتها، ومن ثَمَّ تجاوزها؟

إشكالية البحث:

ذهب هذا البحث الموسوم ب: مفهوم العدمية وتجلياته في فلسفة نيتشه إلى التطرق لفكرة أصيلة في فلسفة نيتشه وهي فكرة العدمية، فماذا تعني العدمية في فهم نيتشه الفلسفي؟ وهل هي فعلًا عدمية متأصلة الجذور في الأخلاق والفلسفة والعلم والثقافة؟ إن كان ذلك كذلك فكيف تجلت هذه العدمية؟ وما العناوين الأساسية التي طرحها نيتشه لكي يؤكد أنَّ هذه العدمية ليست إلا الحدث الأصيل للحداثة بصورها ودلالاتها الأخلاقية والدينية والميتافيزيقية كلّها؟ وهل بإمكان هذه العدمية أن يكون لها وجهان متناقضان؟ وجه

---

[1] لوفيت، كارل: من هيغل إلى نيتشه: التفجر الثوري في فكر القرن التاسع عشر، ماركس وكيركيجارد، جـ1، تعريب: ميشيل كيلو، دراسات فكرية (2)، ط1، منشورات وزارة الثقافة، 1988، ص: 233.

[2] صليبا، جميل: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، جـ2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص: 66.

موسوم بالإيجاب يتجلى في مواجهة العَرض الذي تعاني منه أوروبا بإرادة القوة[3] التي سيقدمها نيتشه فلسفيًا لكي تصل بنا إلى المسار الصحيح للبشرية، ووجه آخر يتسم بالسلب يكشف عن العَرض السلبي المنتشر في أوروبا بصوره وأشكاله كلّها؟ وكيف هو السبيل إلى تجاوز هذه العدمية التي تكللت بأخطر ما تفوه به نيتشه، وهو فكرة موت الله[4]؟ وبناء عليه كيف سيتجلى موقف نيتشه من التعديلات العميقة، التي سيجريها من خلال نقده المعرفي للقيم العليا للحضارة الغربية؟. من هنا فإننا في هذا البحث حاولنا توضيح رؤية نيتشه للعدمية بتجلياتها كلّها، وتوضيح لماذا طرق نيتشه مطرقته بقوة للإنذار بخطورتها؟ وكيف سنواجه هذا الارتكاس الذي أنتجته هذه العدمية، وما السبل لذلك؟ ومن سيكون قادرًا على تقويض هذا الارتكاس؟ هذا كلّه حاولنا تقديمه، والإجابة عنه عبر هذا البحث.

أهداف البحث:

تتجلى أهداف البحث في الإجابة عن جملة من التساؤلات التي تعكس في مجملها السؤال المركزي في بحثنا، وأهمها: توضيح موقف نيتشه من عدمية عصره، وتبيان مضامين هذه العدمية النيتشوية بأبعادها المختلفة بدءًا من فكرته الديناميتية موت الإله وصولًا إلى زعزعة القيم الأخلاقية وإسقاطها، التي لطالما عُدَّت قيمًا عليا[5]، وحقيقتها مطلقة، مرورًا بفكرة التراتب، التي وضحناها في فلسفة نيتشه على أنَّها غروب قيم وأصنام عقلية، وشروق رؤىً وقيم جديدة تبشيرًا برؤية جديدة للحياة والوجود على أساس فلسفي أصيل.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تناوله لرؤية نيتشه الفلسفية لمظاهر العدمية في عصره، أي في الكشف عن أسس هذه العدمية وجذورها، التي لا تزال حتى يومنا هذا تثير جملةً من التساؤلات الفلسفية العميقة.

منهجية البحث:

كانت آلتنا الفكرية في هذا البحث المنهج التحليلي والمنهج التاريخي، حسب ما يقتضيه سياق البحث من ضرورة، لنفكك بنية نصوص نيتشه، ومن ثم نركب الأفق الذي كان يسعى لتبيانه مضمون فلسفة نيتشه، لفهم الآلية التي استنبط من خلالها نيتشه أفكاره العميقة.

---

[3]- إرادة القوة: هو مصطلح فلسفي، اختصت به فلسفة نيتشه، وكان نيتشه قد قدم عبر هذه الفكرة الفلسفية رؤيته الفلسفية العميقة التي ضمنها في كتابه الموسوم بعنوان: إرادة القوة، وقد حاول نيتشه في هذا الكتاب أن يعرض لمجمل طروحاته الفكرية من أجل محاولة قلب القيم السائدة في عصرة كلّها.

[4]- مرجع سابق: ص: 35.

[5]- فاتيمو، جاني: نهاية الحداثة، ترجمة: نجم بو فاضل، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 214، ص: 3.

مضامين العدمية النيتشوية وتجلياتها:

1- موت المطلق عند نيتشه:

إن هذه الفكرة من أخطر وأجرأ الأفكار التي عرضها نيتشه وقدم لها في فلسفته، إذ إنَّه كثيرًا ما تم الترويج لهذه الفكرة على أنَّها الدليل على إثبات كفر وإلحاد نيتشه، وكثيرًا ما تم رفض قراءة فلسفة نيتشه استنادًا إلى ما تم تقديمه بناءً على هذه الفكرة. فمالذي يقصده ويعنيه نيتشه بموت المطلق[6]، المتمثل في موت الإله؟ ولماذا أصلًا أعلن هذا الموت؟ وما الغاية من ذلك؟

إن المتخصص[7] في قراءة نيتشه وتمحيص فلسفته لا يراوده الشك في أنَّ ما حمل نيتشه على القول بموت المطلق المتعالي المتمثل في موت الإله لم يكن إلا الدليل القوي على مدى درجة إيمان نيتشه الحقيقي، لذلك علينا أن نخرج من الدلالة الحرفية السطحية لهذا المصطلح الفلسفي النيتشوي، وأن نغوص ونؤول بشكل أصيل في معناها الفلسفي العميق الذي كان يريد توضيحه نيتشه.

إن نيتشه قد عاصر وشهد كيف تحولت الأفكار الإنسانية إلى تابوهات مقدسة وكيف تم تحريف وتشويه الحقائق والمعارف لخدمة المصالح الإنسانية باسم الدين أو الأخلاق أو باسم القيم والعلم....الخ، من هنا فقد وجد لزامًا عليه أن يفصح عن هذه الفلسفة الإنسانية العميقة انطلاقًا من واجب الإنسان تجاه إنسانيته وليس من أجل أي شيء آخر

وبذلك فإننا هنا في هذا البحث نريد أن نوضح أن موت المطلق المتعالي عند نيتشه ليس إلَّا إسقاطًا وموتًا للصنم العقلي الذي امتد حقبة تاريخية طويلة ينادي باسم الحقائق الفكرية، والعلمية، والدينية والأخلاقية....الخ.

فالدين برأيه قد تشوه وتحول إلى أداة سلطة وعنف على يد رجال الدين والكنيسة – بعد أن كان في التراجيديا الإغريقية يعبّر عن اتحاد الإنسان والتحامه بالآلهة[8]، والأخلاق– عُمِّقت عبّر هذا التشويه للحقائق معاداة ومناقضة الحياة الإنسانية بكل ما

---

[6]- موت المطلق عند نيتشه لا يعني على الإطلاق موت الخالق عزوجل، كما تم الترويج لفلسفة نيتشه، علة أنها فلسفة ملحدة وأن نيتشه نفسه هو فيلسوف ملحد، بل المقصود بهذا المصطلح موت مفاهيمنا وأفكارنا والأسس المطلقة التي بينينا عليها تأسيسنا للأفكار المطلقة لكلّها في المجالات كلّها.

[7]- لعل من أهم المتخصصين بدراسة نيتشه في الوطن العربي: فؤاد زكريا، جمال مفرج، محمد أندلسي، عبد الرحمن بدوي، مرقص بشارة، فليكس فارس. أمّا أهم من بحث في دراسة الفلسفة النيتشوية في فرنسا: فهو جيل دولوز، وفي ألمانيا: وولتر كاوفمان (walter kaufman).

[8]- بلعقروز، عبد الرزاق: نيتشه ومهمة الفلسفة، قلب تراتب القيم والتأويل الجمالي للحياة، تقديم: عز العرب لحكيم بناني، ط1، منشورات الاختلاف، ص: 9.

تحمله عبر تجلياتها من ثنائيات وطيات في جوانبها، تكن ما تكن من فصل وتقسيم بين ما هو: عقلي وحسي، وبين ما هو خير وشرير، وبين اجتزاء لعالم دنيوي وعالم آخر ما ورائي، وكيف لا ونيتشه يعدُّ الدين هو المصدر التقليدي القديم للأخلاق "**إذ إنَّ الديانة المسيحية أنتجت عبر تاريخها الطويل قيمًا حاقدة على الحياة، تحط من شأنها وتنادي بالزهد فيها عبر كره الجسد واحتقاره ونبذ الغرائز والشهوات والتبشير بوجود " عوالم أخرى" أفضل من العالم الأرضي**"[9]، فالحياة عند نيتشه هي الأصل الجوهري للقيم كلّها، لذلك كان هدف نيتشه نزع المطلقات كلّها بصورها وتجلياتها كلّها الدينية والأخلاقية والعلمية، التي تنكر وتنفي الحياة وتسعى للخلاص منها.

فما نحتاجه اليوم هو ضرورة إعادة النظر في قيمنا جميعها، التي شهدت ما شهدت من إضفاء التأويلات والمصالح الإنسانية التي تم تغليفها بما هو ديني وأخلاقي وحتى ميتافيزيقي، على اعتبار أنَّ **(العدمية هي العقيدة القائلة بغياب القيم، أو أنَّها هي العقيدة المؤشرة على غياب الغاية والبغية والمرمى)**[10] وكذلك الابتعاد عن الأحكام المسبقة القيمية، لذلك كان لا بدَّ من ضرورة التأسيس لتراتب جديد يبشر بولادة الإنسان الأعلى[11] المحب للحياة، والقادر على تحويل هذه العدمية السلبية إلى عدمية إيجابية فاعلة، تتجلى بموقف نيتشه النقدي والثائر على ماسبق كلّه لإحداث تغييرات جذرية جينالوجية من أجل فتح الأفق وفسح المجال لإبداع قيم جديدة تليق بإنسانية الإنسان ومن أجل تقويض التفكير العدمي الميتافيزيقي بتصوراته كلّها الأنطولوجية وتعيناته الأخلاقية والدينية[12].

---

[9]- عبد اللطيف، نبيل: فلسفة القيم نماذج نيتشوية، سلسلة المكتبة الفلسفية بإشراف: د. أحمد عبد الحليم عطية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 16.

[10]- الشيخ، محمد: نقد الحداثة في فكر نيتشه، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ص: 576؛

أنظر أيضًا:

Nietzsche. F; Angele. K: Le Nihilisme Europeen{precede} QueSignifie, union Generale d'Editions, Paris,1997, P: 153-154.

[11]- الإنسان الأعلى أو الإنسان المتفوق هو بحسب تعبير نيتشه هدف الإنسانية المنشود، الذي يحمل ما يحمله من إمكانيات، تجعله قادرًا على مواجهة العادات والأنماط التقليدية السائدة في الفلسفة والعلم والأخلاق، وهذا الإنسان المتفوق ليس بديلًا عن الإله، الذي أعلن موته نيتشه، وليس إنسانًا مفارقًا أو خياليًا، بل هو أقرب ما يكون من الأرض والحياة الإنسانية، وقد اكتشف بوعيه كل الخداع والنفاق الذي لبس على الدوام أثوابًا جميلة، غلفت أشكال الحياة والوجود كلّها بمسميات تلونت حسب المصالح والأهواء؛ الشيخ، محمد: نقد الحداثة في فكر نيتشه، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ص: 695.

[12]- النمر، محمد نور: نيتشه وتقويض الميتافيزيقا في الفلسفة المعاصرة، مجلة نقد وتنوير، العدد الرابع، الفصل الأول، السنة الثانية، مارس/آذار، 216، ص: 283.

2- التراتب:

يمثل التراتب Hierachy عند نيتشه نسقًا يقسم العالم إلى ثنائيات، وأشكال مختلفة، وهذه الثنائيات تقود إلى تناقضات متشعبة كالخير والشر والحس والعقل الخ، التي تؤدي بدورها إلى دلالات ومعانٍ مختلفة تشكل أقنعةً تغلف تأويلاتنا وأحكامنا المسبقة كالعدل، والمساواة، والتسامح والشفقة وغيرها من القيم التي ننادي بها.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف تجلى الكشف عن مشكلة التراتب الميتافيزيقي في فلسفة نيتشه؟ إنَّ الانقسامات والثنائيات التي مر بها الإنسان عبر تاريخ الفلسفة، ليست إلَّا مثالًا واضحًا على المشكلات التي واجهت عقولنا منذ سقراط وحتى الآن، بين قيم للخير وقيم للشر، وبين قيمة الجسد وقيمة الروح، وبين إنكار للحياة وهروب إلى العالم الآخر وبين ازدراء للحس والغريزة، وتقديس للعقل، وكذلك بين تركيز على الجوهر وإهمال للعَرض، لذلك كان لا بدَّ بنظر نيتشه من ملاحقة أصلها والكشف عن الأقنعة التي لطالما تسترت واختفت وراءها بإرادة الإنسان الذي لطالما كان برأي نيتشه منذ سقراط حاملًا للأثقال التي أتعبت كاهله، وذلك عبر منهجه الجينالوجي[13].

فالثنائية بين عالم المظهر وعالم الجوهر الحقيقي(الوجود)، فرضت على الدوام تقسيمًا لوجود الموجود بين وجود حقيقي أصيل ووجود غير حقيقي وغير أصيل، "**وكل رتبه تقاس بالنسبة إلى المسافة التي تفصلها عن الموجود الأعلى الذي يدعونه عادة المطلق أو الإله**"[14] وهذا ما أدى إلى المفارقات والثنائيات المتنوعة. إن هذا التصور لتاريخ الميتافيزيقا برأي نيتشه قد حاول على الدوام أن يخفي الصيرورة التي تثبت الوجود والتي يثبت الوجود فيها نفسه[15]، وأن يعيد نفسه بأشكال مختلفة بدءًا من سقراط وصولًا إلى أرسطو، ومن ثم دخل هذا التصور في الدين عبر اللاهوتيون[16]، إلى أن ازدهر مع ديكارت وهيغل بمقولته الشهيرة "إنَّ ما هو عقلي واقعي وما هو واقعي عقلي"، وبذلك كان يتكرر هذا التصور بأشكال وألوان مختلفة تعبث وتحقد على الحياة من خلال الشعارات البراقة. إذًا لقد قصد نيتشه بالتراتب رؤية الإنسان الذي يشخص ويقوض ويعيد بناء ما تم إنتاجه من أخلاق معينه، ومراحل ومسارات تاريخية محددة بأشكال متعددة

---

[13]- عبد اللطيف، نبيل: فلسفة القيم نماذج نيتشوية، مرجع سابق، ص: 65.

[14]- بلعقروز، عبد الرزاق: نيتشه ومهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص: 66.

[15]- دولوز، جيل: نيتشه ومهمة الفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص: 84.

[16]- بلعقروز، عبد الرزاق: نيتشه ومهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص: 67.

دين، وأخلاق، وعلم.. إلخ. لأنَّ التراتب وفق نيتشه هو رؤية تحمل في طياتها مهمة أساسية تتمثل بوصفه: "**تشخيص وبرنامج في الوقت نفسه، أي إنَّه تجربة مزدوجة، فهو من جهة شكل من أشكال التقييم والوجود الثقافي الذي أفرزته الثقافة التاريخية الارتكاسية، ومن جهة أخرى هو إعادة بناء للقوى مع تأكيد لقيمة الحياة، وتباشير نحو فاعل بشري جديد**"[17].

3- الأخلاق المسيحية وتبعاتها التأويلية:

أدرك نيتشه عبر منهجه الجينالوجي[18]، أنَّ الإنسان هو من أبدع كل صنوف القيم وأنواعها، وهو من أضفى عليها تأويلاتها ومعانيها، ومن ثمَّ دلالاتها المختلفة كلّها.

وقد أوهم ذاته بأنَّه قد وجد تلك القيم بكل ما تحمله من رمزية ودلالة، وأنَّه لم يوجد أو يخترع بذاته أي قيم، وبذلك استطاع هذا الإنسان أن يوهم نفسه بأنَّه غير قادر على تجاوز هذه القيم لأنَّها فرضت عليه قبلًا بشكل قيمي مطلق ومقدس، وكذلك أيضًا بشكل أخلاقي. لذلك أراد نيتشه أن يحدث انقلابًا في فكر الإنسان عبر بحثه العميق في جذور هذه القيم وأصولها فيلولوجيًا[19]، وجينالوجيًا، عبر سبر أغوار هذه القيم بعيدًا عما لحق بها من تأويلات وتفسيرات وسمات، "**ولكن ما يسمى بموضوعية القيم لا يعدو كونه بالضبط، في نظر نيتشه، ابتداعًا: فقد "ابتدعها" الوجود الإنساني ولكنه "نسي" أنَّها كذلك**"[20]، فالإنسان الذي ابتدع هذه القيم في لحظة ما هو بقادر أن يبدع غيرها ثانيةً

---

[17]- بلعقروز، عبد الرزاق: نيتشه ومهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص: 92.

[18]- See: Fink. E: Nietzsches Philosophie, W. Kohlhammer Verlag, Stuttgart, Zweite unveränderte Auflage, 1968, S: 14.

[19]- الجينالوجيا: هي منهج يفكك الخطاب الميتافيزيقي وينقده ويقوضه ويعمل على كشف الأقنعة التي شابته عبر التاريخ بأشكالها كلّها: الدينية والأخلاقية والسياسية وكذلك العادات والتقاليد...الخ، ولعل هذا ما عمل وفقه نيتشه في كتابه جينالوجيا الأخلاق. إذ أسهمت جينالوجيته في مسألة القيم إلى كشف زيف الأقنعة الأخلاقية والعادات والدين وفضح أصولها، وأيضًا كشف ما طغى عليها من التباسات وغموض وتأويلات إنسانية.

الفيلولوجيا: هي الحفر والتنقيب عن أصول الوقائع، كي نكون قادرين على التمييز بين هذه الوقائع وبين ما تم تأويله وتفسيره عنها، وتعدُّ الفيلولوجيا فرعًا من فروع علم اللغة، يهدف إلى الكشف عن أصول اللغة وبناها وجذورها اللغوية من أجل التوصل إلى معرفة التغيرات التي لحقت بها حتى وصلت إلينا بالشكل الحالي الراهن، والهدف من هذا الحفر والتنقيب كلّه هو التأسيس لإعادة بناء هذه اللغات كما كانت في أصولها وجذورها.. أمَّا علم الفيلولوجيا الكلاسيكي الذي عني به نيتشه فهو علم يهتم بدراسة الآداب واللغات القديمة مثل اليونانية واللاتينية دراسةً تاريخيةً نقدية من أجل التدقيق والتحقيق بها، وكذلك من أجل المقارنة بين مصطلحاتها وعباراتها وتاريخ تطورها لمعرفة التغيرات التي طرأت عليها عبر العصور، وهو اختصاص دقيق ذو مناهج محددة ومبادئ معترف بها ومجمع عليها من الدارسين والمختصين.www.almrsal.com/post/236493؛ انظر أيضًا: www.dorar-aliraq.net/threads/368767

[20]- فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، ترجمة: إلياس بدوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974، ص: 144.

وثالثةً، بمعنى سيكون هذا الإنسان قادرًا على أن يبدع قيمًا جديدةً تليق بالإنسان الأعلى المحب للحياة، والمتمتع بإرادته القوية وبعوده الأبدي "**اسمعوا أيها الموجدون إنَّ قيمة الأشياء تتغير تبعًا لتحول اعتبار الموجد، ولا بدَّ لهذا الموجد من أن يهدم في كل حين**"[21]. بمعنى آخر: لا يوجد قيمًا مطلقةً برأي نيتشه بل قيمًا ترتبط بالنفع الحيوي للإنسان، وبالظروف المتغيرة سواء أكانت ظروفًا اجتماعية أو سياسية أم ظروفًا اقتصادية أو علمية...الخ.

فهذه القيم هي: "**هي معايير صنعها الإنسان لهدف معين، وفي وسعه أن يبدلها إذا شاء أن يضع لنفسه هدفًا آخر**"[22]. فالأخلاق المسيحية كما رآها نيتشه عبرت على الدوام عن تبعاتها الأخلاقية، فكانت المسيحية دينًا للشفقة[23] وتأسيسًا لأخلاق العبيد[24]، يسمون المسيحية دين الشفقة "**لكن الحقيقة الشفقة تتعارض مع الانفعالات المقوية التي تصعد من طاقة الحس الحيوي**"[25].

"**وما المسيحية سوى أخلاقية العبيد، وهي السبب الأساسي في كفاح نيتشه ضدها**"[26]. فكانت القيم الشعبية التي سادت الأخلاقية المسيحية كالشفقة والرحمة والعدل والخير والرأفة والمحبة والمساواة...الخ هي مصادرات ومراءاة زرعتها الأخلاق المسيحية برأي نيتشه لإبقاء الجماهير بحالة خضوع أعمى لها[27].

فنيتشه لا يستطيع أن يتقبل المسيحية التي تنادي بمساواة كل البشر لأنه يحارب التقاليد العامية والديمقراطية[28]، فكيف ننادي بالمساواة بين الناس وليس الأفراد، برأي نيتشه على سوية واحدة من الإرادة لأن العدالة علمته "**أن لا مساواة بين الناس، وأنه من الواجب ألا يتساووا**"[29]. أيضًا كان موقفة واضحًا من مسألة العقاب والثواب إذ لا

---

[21]- نيتشه، فريدرش: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، 1938، شذرة ألف هدف وهدف، ص: 85.

[22]- زكريا، فؤاد: نوابغ الفكر الغربي 1: نيتشه، ط2، دار المعارف، مصر، 1966، ص: 56.

[23]- نيتشه يرفض الشفقة لأنها بالنسبة إليه لا تمثل عملًا نبيلًا، بل هي مكمن الأنانية، لأنَّنا حين نشفق على الآخرين يكون في ذهننا حالتنا نحن، كي لا يؤول المآل بنا إلى ما حدث للآخرين، زكريا، فؤاد: مرجع سابق، ص: 87.

[24]- أخلاق العبيد تمثل الأخلاق والقيم السائدة والمتوارثة، هذه القيم العاجزة عن مواجهة الحياة وإثبات وجودها، أمّا أخلاق السادة فهي تمثل الأخلاق القادرة على إثبات الحياة، وتأكيد وجودها بقوة، بما يملكون من إرادة القوة.

[25]- بلعقروز، عبد الرزاق: نيتشه ومهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص: 15.

[26]- فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، ترجمة: إلياس بدوي، مرجع سابق، ص: 157.

[27]- أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر، 1983، ص: 42.

[28]- أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، مرجع سابق، ص: 45.

[29]- نيتشه، فريدرش: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مرجع سابق، شذرة العناكب، ص: 128؛ أنظر أيضًا: شذرة العلماء، ص: 155.

حياة في أي عمل نقوم به إن لم يكن نابعًا من ذاتنا، بغض النظر عن مبرراتنا التي دفعتنا للقيام بذلك، أي أن نؤدي عملنا لا لمكافأة نسعى لبلوغها ولا خوفًا من عقوبة ما، بل لأنه عملنا، فالشجاعة لا تعني ألا نخاف، وإنَّما الشجاعة أن نعمل عملنا بإخلاص وبإرادة رغم المخاطر كلّها التي نعرف أنها ستقف في وجه عملنا لمنعنا من متابعة عملنا" **إنَّ ما يؤلمني هو أن العقاب والثواب قد دسا دسًا في غاية كل أمر، بل حشرا حشرًا في أعماق نفوسكم، أيها الفضلاء**"[30].

ولا قيمة برأيه للكلمات الطنانه كلّها التي نادت بها الأخلاق المسيحية إلَّا في الصراع، لأنَّه برأيه ما من ظواهر أخلاقية ولا أحكام أخلاقية ولا قيم أخلاقية ثابتة ومطلقة، بل كل ماكان لم يكن سوى تأويلًا أخلاقيًا أو نمطًا للتأويل الأخلاقي أصله خارج الأخلاق[31]، وارتباطه أصيل بأنانية الإنسان ومصالحه وتحقيق منافعة.

ما نود تأكيده عليه هو أنَّ نيتشه، الذي وسم نفسه بأنَّه لا أخلاقي هو فيلسوف أخلاقي بامتياز، فهو يقول: "**غير أنني، ولغرض آخر، اخترت لنفسي عبارة اللا أخلاقي كعلامة مميزة وعنوان شرف، وأنا فخور بأن تكون لي هذه العبارة التي تضعني في موضع المواجهة مع البشرية بكليتها**"[32] – فنيتشه إذًا هو "**قبل كل شيء أخلاقي ومنظر للأخلاق**"[33]، ومن ثمَّ فإنَّ قيم الخير والشر، وقيم احتقار وازدراء الجسد والحياة التي تم ابتداعها من قبل الإنسان، لم تكن إلا افتراضات أوجدها الإنسان هربًا من عجزه وشعوره بالألم[34]، وكذلك لم تكن إلا تجسيدًا وتعبيرًا عمن يمثلها وهم العبيد الذين يملكون أخلاق العبيد، أخلاق الحياة المضاعة، الأخلاق الضعيفة والهزيلة التي تفتقد العزم والقوة، أخلاق العامة والقطيع التي تردد فقط ما يمليه عليها من يتمتعون بأخلاق السادة، الذين يمتلكون إرادة القوة والعود الأبدي، أخلاق المحاربين والفرسان[35].

إذًا ما نود أن نصل إليه هو أن نقد نيتشه للأخلاق المسيحية كان من منطلق ومنظور إجلاء هدف واحد هو مراجعة وإلغاء العقائد القيمية التي مثلت برأيه وعكست هذه العدمية، أي تحقيق وقفة في وجه الحياة التي أضاعها الإنسان عبر تاريخه، تاريخ

---

[30]– نيتشه، فريدرش: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مرجع سابق، شذرة الفضلاء، ص: 12.

[31]– أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، مرجع سابق، ص: 41.

[32]– نيتشه، فريدرش: هذا هو الإنسان، ترجمه عن الألمانية: علي مصباح، ط1، منشورات الجمل للطباعة والنشر والتوزيع، برلين، ص: 159.

[33]– أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، مرجع سابق، ص: 4.

[34]– نيتشه، فريدرش: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مرجع سابق، شذرة المأخوذون بالعالم الثاني، ص: 53.

[35]– فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، ترجمة: إلياس بدوي، مرجع سابق، ص: 15/151/154/155/156/157.

الأفكار المطلقة وتاريخ الثنائيات التي لا تعد ولا تحصى، لحظة تدارك للإبداع الذي تناساه الإنسان، والذي ارتكزت عليه كل منظومات القيم التي لا بدَّ من تحريكها وتغييرها "**ذلك أنَّ لكل إنسانية وكل شعب وكل ثقافة "قبليتها القيمية" وتقييمها الأساسي الذي يتخذ كل منها، تبعًا له، مقامه وسط الموجود ويحيا حياته. وليس من شك أن"قبلية" التقييم الأساسية هذه ليست علم تقييم مستقر وفطري، بل لها تاريخها وهي متحركة**"[36]. وعلى ذلك فالنقد الذي قدمه نيتشه ضد الأخلاق المسيحية لم يكن نقدًا للدين بحد ذاته كعقيدة ووحي، بل مثل نقدًا لمنظومة القيم التي قدمتها الأخلاق المسيحية. فنيتشه يدرك المسيحية قبل كل شيء بمنزلة منظومة قيم[37] لا بمنزلة عقائد ووحي إلهي.

4- الفلسفة ودور الفلاسفة:

بعد أن انتقد نيتشه الأخلاق السائدة بكل ما تضمنه من دلالات ومعانٍ وبعد أن دعا إلى قلب القيم التقليدية البالية[38] على اعتبار أنَّه نظر إلى الحياة والوجود من منظور جديد وتأويل جديد يقوم على الشجاعة في إجراء التغير والتبدل وعدم الاعتراف بوجود قيم ومعايير أخلاقية مطلقة تعلو على حقائق الحياة المتغيرة كان لا بدَّ من التعويل على الفلسفة ومراجعة أسسها الأولى ونقدها[39] على اعتبار أنَّه يقع على عاتقها مهمة أساسية وجوهرية

فقد أدرك نيتشه أنَّ الفلسفة منذ بواكيرها مع سقراط[40] قد فقدت أغلى ما كانت تملك ووقعت في ضلال جعلها تنظر نظرةً مهينةً لهذا العالم ولهذه الحياة. فالفلسفات كلّها منذ سقراط مرورًا بأفلاطون وديكارت وهيغل وكانط كانت بالنسبة إليه مجرد هروب من العالم الواقعي الأرضي، وذلك نتيجة الامتثال والتأثير الذي تمت ممارسته من قبل الأحكام القيمية الأخلاقية، عبر ما تم السعي إلى تثبيته عبر التاريخ من ثبات، مطلق، ومقدس، والتي جعلت عالمنا الذي نعيش ونحيا فيه مجرد وهم وخداع في مقابل العالم الآخر "**جميع ما**

---

[36]- اوفنك، أويغن: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص: 145.

[37]- فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص: 144.

[38]- يعدُّ نيتشه السبَاق في طرح فكرة انقلاب القيم، لأنَّه أدرك ببحثه الجينالوجي العميق أنَّ الإنسان هو من خلق القيم وأضفى عليها المعاني كلّها، وعندما يقول إنَّ الإنسان هو من خلق هذه القيم فهو يعني بذلك نسبية هذه القيم ومن ثمَّ هذه النسبية ستكون الحل الجذري لنفي ما هو مطلق ومن ثمَّ فتح الأفق لقيم جديدة قد نقبلها وقد نرفضها؛ زكريا، فؤاد: نيتشه، مرجع سابق، ص: 58-60 بتصرف.

[39]- دولوز، جيل: نيتشه ومهمة الفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993، ص: 5.

[40]- See: Nietzsche, F: Jenseit von Gut und Böse,Zur Genealogie der Moral, der Fall Wagner,Götzen-Dämmerung, der Antichrist, Werke, Band3, Frankfurt/Main, u.a.1972, das Problem des Sokrates, No(2), S: 397.

سمي حتى الآن فلسفةً وديانةً وأخلاقًا لا يعدو كونه سمًا ينفث في الحياة"[41]. ولكن مالذي فقدته الفلسفات جميعها منذ سقراط وحتى الآن بحسب رأي نيتشه؟؟ إنه الصيرورة!!، نعم الصيرورة، تلك الفكرة الجوهرية التي عُدَّت من المنسيات بالنسبة إلى تلك الفلسفات "**كل ما تداوله الفلاسفة كامن في حقدهم على فكرة الصيرورة**"[42].

ولكن لماذا أخفيت هذه الصيرورة؟ وهل كانت الثنائيات التي سادت وجودنا إهمالًا ونسيانًا لهذه الصيرورة حقًا؟ بمعنى آخر: هل الفلسفات السابقة كلّها بكاملها منذ بواكير سقراط لم تكن إلا فلسفة متتاليات من الأخطاء، والتي نتجت عن غياب جوهر الوجود "الصيرورة"، وعلينا من ثمَّ تجاوزها ليعود للوجود أصالته؟ وهل كان انفصال الفلسفات السابقة كلّها عن الحياة هو حقًا نتيجة فعلية وحتمية لإخفاء هذه الصيرورة، صيرورة الحياة؟ هذه التساؤلات كلّها وغيرها ستكون جزءًا مهمًا مما قدمناه عن رأي نيتشه بالفلسفة وبالدور المناط بالفلاسفة.

في الحقيقة عملت الفلسفات السابقة على الفصل دومًا بين عالم الحقيقة وعالم المظهر، وهذا الفصل بدوره أدى إلى وجود الموجود وجودًا حقيقيًا ووجود الموجود كوجود غير حقيقي، وهذا استحال بدوره إلى القول بوجود أصيل حقيقي (جوهر)، ووجود غير أصيل وغير حقيقي (مظهر)، ومن ثمَّ زاد الفصل وتشعبت درجاته؛ بسبب المقاييس التي قسنا بها درجات قرب هذه الموجودات وبعدها من الموجود الأول، أو كما يسميه أرسطو المحرك الأول، ولعل السبب في ذلك عدم وجود الموجودات حسبما عُرِضَ عبر تاريخ الفلسفة وفق ذاتها، بل كان وضعنا للموجودات دومًا وفق وحسب مرتبتها ودرجة اقترابها من المطلق[43].

لذلك فقد وعى نيتشه أننَّا نواجه مشكلةً فلسفيةً عميقةً أنتجها وأخرجها العقل ومنطقه، وقد أفضت إلى هذا الكم الهائل كلّه من الثنائيات، وإلى هذا الإجحاف كلّه بحق عالمنا وحياتنا، لذلك أخذ نيتشه على عاتقه مهمة نسف الميتافيزيقا القديمة كلّها، وما ادعته كلّه من ترفع وعلو عن هذا العالم[44]، وكل ما عبرت عنه من ثنائيات وأوهام عبر تاريخها "**إن أكذوبة المثل ظلت إلى الآن اللعنة الحائمة فوق الواقع، وعبرها غدت الإنسانية نفسها مشوهة ومزيفة حتى في غرائزها الأكثر عمقًا – تزييفًا بلغ حد تقديس القيم المعكوسة المناقضة لتلك التي كان بإمكانها أن تضمن النمو والمستقبل، والحق المقدس في**

---

[41]– فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص: 155.
[42]– فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص: 167.
[43]– مرجع سابق: ص: 17–167.
[44]– زكريا، فؤاد: نوابغ الفكر الغربي 1؛ نيتشه: مرجع سابق، ص: 71.

مستقبل"[45]، من أجل خلق فلسفة جديدة تقوم على مراجعة القيم جميعها، إن لم يكن كلّها فعلى الأقل في بعض مظاهرها الأساسية[46]. فالاعتقاد بجبروت العقل كان خطيئةً فادحةً؛ ذلك أنَّ "**العقل نفسه أتى العالم من دروب غير معقولة**"[47]. فنيتشه بإنكاره لجهل وجبروت وتعجرف العقل أراد أن يفسح المجال للحياة والجسد والغريزة والحدس، وكأنَّه أراد أن يقول لنا: انتبهوا هناك طرائق ومنابع أخرى لفهم العالم وتفسيره وتأويله، لذلك لا تهملوا النواحي الأخرى الموجودة في الحياة، وتعتبروا وكأنه لا يوجد في الوجود والحياة من طريقة لفهمهما غير العقل، وهذه بالحقيقة نقطة جديرة بأن تؤخذ على محمل الجد في فهمنا لفلسفة فيلسوف المطرقة نيتشه "**إن المسائل المتعلقة بأصول الفلسفة هي غير ذي بال، لأنَّه في الأصل تسود في كل مكان البربرية، والمعدوم الشكل، والفراغ والبشاعة**"[48].

فالتفاؤل المعرفي والاسترخاء بحجة أنَّنا اكتشفنا كل شيء ولم يعد هنالك من شيء لنكتشفه، قد أثار اشمئزاز نيتشه لأنَّنا فصلنا بين فكرنا وفعلنا، ومن ثم لم نقم بفعل أي شيء. لكن من ذا الذي لن يقبل بهذا الوضع ولن يستسلم لتلك القيم التقليدية البالية كلّها وسيعمل جاهدًا على قلبها وإعادة تقويمها؟ إنَّه الفيلسوف الذي يبني عليه نيتشه آمالًا عظيمةً وجسيمةً، ولكن ما صفات هذا الفيلسوف؟؟ إنَّه "**الإنسان الذي حل في أعلى مرتبة، لكنه لا يحدد مكان هذه المرتبة في المجال النظري، على نحو ما فعل أفلاطون وأرسطو، بل في مشروع القيمة وفي الحرية الخلاقة**"[49]. لذلك يطالب نيتشه العلوم جميعها بأن تساعد في تهيئة الشروط التي تخدم مهمة الفيلسوف المقبل، "**على العلوم جميعها أن تشرع من الآن فصاعدًا بتهيئة الشروط التي تخدم مهمة الفيلسوف المقبل: هذه المهمة تقوم في ما عنى الفلسفة، على حل مشكلة التقييم، على تحديد سلم القيم ومراتبها**"[50]. هذا الفيلسوف الذي يفكر بالتخلص من ضجة القطيع العوامي، ومن همومه وثرثرته التي يزاولها، لكي تتاح له الفرصة في أن يفكر في الرقص والاندفاع والتحليق بأفكاره، حيث الوجود الطليق[51].

---

[45]- نيتشه، فريدرش: هذا هو الإنسان، ترجمه عن الألمانية: علي مصباح، ط1، منشورات الجمل للطباعة والنشر والتوزيع، برلين، ص: 8.

[46]- أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، مرجع سابق، ص: 16.

[47]- نيتشه، فريدرش: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس؛ مرجع سابق، شذرة منابر الفضيلة، ص: 5.

[48]- نيتشه، فريدرش: الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم: ميشيل فوكو، تعريب: سهيل القش، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1983.

[49]- فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، مرجع سابق: ص: 29.

[50]- نيتشه، فريدرش: أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، د.ط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ت، ص: 49.

[51]- نيتشه، فريدرش: أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، مرجع سابق، ص: 15-16-17.

فالفيلسوف الذي ينشد نيتشه ستكون عليه مهمة جسيمة نقدية في جوهرها، لأنَّ هذا الفيلسوف لن يقبل التقويم التقليدي السلبي تجاه الحياة، ولن يتعالى على هذا العالم، لأنَّ القيمة الحقيقية لحياتنا وعالمنا تكمن في هذه الحياة وفي أفعالنا في هذه الحياة، تلك الأفعال التي نفتها الميتافيزيقا بحديثها عن العوالم الأخرى التي سلبت الحياة مركزها الحقيقي[52]، وهذا الفيلسوف الذي يسعى له نيتشه سينظر إلى الحياة بوصفها كفاحًا متواصلًا وصراعًا ضد الأكاذيب وكل أنواع الخداع والتزييف والوهم التي صنعتها الميتافيزيقا والإنسانية عبر تاريخها[53]، وهذا التقويم لهذا الوضع سيكون نفيًا أحيانًا وهدمًا أحيانًا وبناءً أو إثباتًا أحيانًا أخرى، إنَّه انتهاء حقبة من الزمن وتبشير بحقبة جديدة أخرى "**إذ لا تستقيم مهمة الفيلسوف مطلقًا في المعرفة بل في تغيير تقدير القيم من خطيئة خطرة على الحياة إلى خطيئة مؤيدة للحياة**"[54].

فما عاناه العالم والحياة والإنسانية لم يكن على مر العصور إلا "**انتصار القيم الأخلاقية الصادرة عن العبيد على حساب قيم السادة والأقوياء، فيتحول العجز إلى فضيلة والقوة إلى شر**"[55]، وهذا برأي نيتشه ما أفقد الحياة قيمتها ومعناها، لأنَّ الإيمان والثقة المطلقة بالعقل ومقولاته كان علة العدمية[56]، ومع ذلك فالإنسان الفيلسوف الحامل لمهمته، لن تكون مهمته سهلة المنال، بل ستكون أمامه مهمة صعبة وتستحق العناء، لأنَّ هدف هذه المهمة هو قلب التصورات والقناعات كلّها، والقيم كلها التي سادت حتى الآن، حتى نصل إلى" **أنَّه لا وجود هناك لأصل نقي وصافٍ، أو جوهر قائم بذاته، يحدد شروط الإمكان، ويمنح الأشياء قيمتها، إنَّما الأصل داخل ذاته ينطوي على التعدد وليس الوحدة، الاختلاف وليس التطابق، والسلب لا الإيجاب. والتشذر لا الهوية**"[57]، فالقيم كلّها التي مجدت ورفعت على حساب القيم الأخرى، والتي عُدَّت

---

[52]- عبد اللطيف، نبيل: فلسفة القيم نماذج نيتشوية، مرجع سابق، ص: 22.

[53]- مرجع سابق: ص: 22.

[54]- أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، مرجع سابق، ص: 56.

[55]- عبد اللطيف، نبيل: فلسفة القيم نماذج نيتشوية، مرجع سابق، ص: 44؛ وهنا لا بدَّ من ذكر أن أخلاق السادة وأخلاق العبيد هي في حالة تناوب، لأنَّه في العصر اليوناني والروماني قد سادت أخلاق السادة، وفي عهد اليهودية والمسيحية قد انتصرت أخلاق العبيد، وفي عصر النهضة الأوروبية عادت أخلاق السادة لكن قهرتها حركة الإصلاح الديني، في القرنيين 17 و18 عادت أخلاق السادة لتقهرها أخلاق الثورة الفرنسية؛ زكريا، فؤاد: مرجع سابق، ص: 94-95 بتصرف.

[56]- النمر، محمد نور: نيتشه وتقويض الميتافيزيقا في الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص: 282.

[57]- بلعقروز، عبد الرزاق: نيتشه ومهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص: 65.

شرورًا، قد استمدت جذورها من إرادة بدائية للتدمير ومن نفسية قد حقدت وتآمرت ضد الثقافة النبيلة، تلك الثقافة التي [كما ذكرنا سابقًا] قد نادت بالشعارات البراقة عن العدل والمساواة والشفقة، هذه الشعارات التي ملأت سماء الحياة وأرضها وأوصلت لنا نموذجًا سلبيًا لإنسان هو نتاج تقييم وتراتب تكون خلال مسارات التاريخ بأشكالها المتعددة الدينية، والأخلاقية، والسياسية والعلمية...الخ[58]، وهو كما سبق ما أسماه نيتشه إنسان القطيع (العبيد)، هذا القطيع الذي ينكر التفاوت بين الأفراد سواء في الذكاء، والقوة، والجمال وحتى النجاح...الخ، وينادي بشعار المساواة ويتغنى به، ويهمل التفرد والتميز، ويهمل ذاك الإنسان الذي يسعى نحوه نيتشه، الإنسان الجريء، الذي يمتلك كرامته ويقول كلمته لا خوفًا ولا جزاءً، إنَّه الفيلسوف الذي امتلك نفسه وحرر وجوده من هيمنة المجتمع وقيوده وسلاسله قيمه وعاداته وتقاليده."**كل من يريد أن يكون مبدعًا في الخير وفي الشر، عليه أن يكون أولًا مدمرًا، وأن يحطم القيم**"[59].

إذًا مهمة الفيلسوف الذي ينشد نيتشه هو الفيلسوف الجينالوجي، الذي سيضرب بضربات المطرقة هذا التاريخ وهذه السلسلة الطويلة اللا متناهية من المثاليات والمطلقات والثوابت والغايات من أجل إعادة اللحظات الإنسانية العميقة التي افتقدها وتناساها الإنسان الحالي، هذا الإنسان الغاية بإنسانيته، الذي سيتخلص من طغيان المعقولية المتجذرة من بواكير فلسفة سقراط، هذه المعقولية التي أغفلت مفارقات الحياة وتناقضاتها وصيرورتها، تلك الصيرورة التي نحس فيها بإنسانيتنا، وبأنَّنا كالأطفال في براءتنا، هذه البراءة البعيدة كل البعدعن خلفيات الأفكار، وأقنعة الأخلاق، والميتافيزيقا والعلم والدين، وما لحق بهم من تشويه وتحريف وافتراء وجهل، ومن ثمَّ ستنقلب مقولة ديكارت من أنا أفكر، إذًا أنا موجود إلى مقولة جديدة أخرى مفادها: "**أنا أحيا، إذًا أنا أفكر**"[60]، فقد "**تاه العقل، وتاهت الفضيلة فخدعتها آلاف الأمور**"[61].

وبذلك يكون فيلسوف المطرقة، الذي جاء بغير أوانه[62]، قد مهد الطريق لمن سيكملون الدرب بعده، بعدما تجرأ وكشف واستنطق كل المسكوت عنه، معطيًا تباشير فلسفته المستقبلية المأمولة، تلك الفلسفة التي "**تخلص الماضي، وأن تحول كل** "**ذلك ما**

---

[58]- مرجع سابق: ص: 8.

[59]- نيتشه، فريدرش: هذا هو الإنسان، ترجمه عن الألمانية: علي مصباح، ط1، منشورات الجمل للطباعة والنشر والتوزيع، برلين، ص: 155.

[60]- أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، مرجع سابق، ص: 5.

[61]- نيتشه، فريدرش: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مرجع سابق، شذرة الفضيلة الواهبة، ص: 103.

[62]- نيتشه، فريدرش: هذا هو الإنسان، ترجمه: عن الألمانية: علي مصباح، مرجع سابق، ص: 114.

كان" إلى "ذلك ما أردت" فذاك فقط هو ما أسميه خلاصًا"[63]. هذا الخلاص الذي حقق رغبة نيتشه القوية في أن يجري نقده المعرفي والجينالوجي الجذري والعميق لكل ما ادعته حضارة الغرب من قيم عليا.

نتائج البحث:

كانت المهمة المتوخاة لهذا البحث هي تبيان أنَّ العدمية التي عرضها نيتشه وحلل مفاهيمها، لم تكن دعوةً إلى أسلوب جديد للحياة يقوم على فوضى معينة، كما تم الترويج لها، بل كانت في عمق مضمونها معنىً يحمل جانبين من الرؤية: المضمون الأول هو حالة التوصيف للوضع الذي ساد واستشرى بقوة في أوروبا، والمضمون الثاني: هو وضع رؤية جديدة لمشروع يكون هدفه الأول المنشودالسعي للنهوض مما نحن فيه.

أي السعي للنهوض من السقطة العدمية القيمية بتجلياتها كلها الدينية والأخلاقية والعلمية والفلسفية وحتى السياسية منها، تلك السقطة العدمية، التي عانى الإنسان ما عاناه بسببها، وذلك عبر عرضنا ضرورة تبرير النقد المشروع الذي قدمه نيتشه، كمفتاح لرؤية موضوعية توضّح إنسانية الإنسان العميقة. فهدف نيتشه لم يكن قط إسقاطًا للفلسفة، والدين، والأخلاق أو حتى العلم، كما ذكرنا في تفصيل مضمون هذه العدمية.

بل كان هدفه إعادة تأويل جديد لهذه العدمية، إعادة رؤية وإعادة قراءة لها، بعد التنقيب عن أصول التفسيرات التي غلفتها وغلفت عمق حقائقها، تلك التفسيرات، التي أسقطت الإنسان في هذا الخواء الفارغ، الذي تجلى في أعظم حلله عبر إنكاره لروح الحياة وروح الأرض. وبذلك فالعدمية كما وضحناها لم تكن إلا وعيًا أصيلًا ورؤيةً عميقةً جديدةً نحو القيم النمطية التقليدية كلّها بتجلياتها وأشكالها وألوانها كلّها،على اعتبار أنَّ هذه التجليات لم تكن إلا تمثيلًا لمجموعة قيم مطلقة، عانت الحياة والإنسانية عبر أصنامها الفكرية ما عانته.

فموت المطلق كان وفق ما قدمناه توصيفًا لحالة الغوغاء الفكرية، التي تموضعت وتراكمت حتى كونت عبر التاريخ، تلك الأصنام الفكرية التي تم وسمها بأنَّها مقدسة وبأنَّها مطلقة، وبأنَّه لا يمكن للإنسان أن يغيرها أو يبدلها، في حين أنَّ هدف نيتشه كان كما حللنا لمضمون فلسفته هو عودة الإنسان لوعيه بالمعنى الحياتي العميق، أي تذكير الإنسان بأنَّ ما قدسه وجعله مطلقًا لم يكن إلا صنيعة عقله على الدوام، وكما صنع الإنسان واخترع وقدم للبشرية أفكارًا قدسها على الدوام هو قادر لا محالة على إيجاد الجديد وعلى الابتكار والإبداع والخلق دومًا في سبيل إنسانيته.

---

[63]- مرجع سابق: ص: 128.

ولذلك كان نقد نيتشه منصبًا ليس فقط على العلم والفلسفة على اعتبار أنهما جسدا أعظم تجسيد، الرؤية الميتافيزيقية المتعالية عن عالمنا وعن حياتنا، بل انصب جل نقده أيضًا على الأخلاق المسيحية ليس كدين ورؤية لاهوتية كما أسلفنا سابقًا، بل على اعتبار أنَّها كانت دومًا تشكل منظومة القيم الضعيفة الحاقدة تجاه إنسانية الإنسان.

فما الدعوة إلى الشفقة والمساواة وإلى ما تم تسميته خيرًا وشرًا، وضاعةً وعظمةً ، سيدًا وعبدًا، وغيرها من القيم وتبعاتها التراتبية، التي لا تعدُّ ولا تحصى، إلا إنذارًا أرعدنا به نيتشه ليقول لنا: بأنَّنا نحن من قيَم الأمور كلّها بالسلب أو بالإيجاب، وبأنَّه لا علاقة للسماء بذلك، فالسماء لم تمطرنا بهذه القيم والأرض لم تقذف لنا ينابيعَ من هذه القيم، بل نحن من خلق هذه القيم وألصقها بقداسة الدين ومطلقية العلم وتجريد الفلسفة. وبناء على ذلك كانت دعوة نيتشه التي استخلصناها من كنه فلسفته وأصالتها هي ضرورة عودة الإنسان إلى فاعليته المبدعة، هذه الفاعلية التي تمثلت وتجسدت بالفيلسوف الذي ينشده نيتشه، هذا الفيلسوف الذي يضرب بضربات المطرقة هذه السلسلة من تاريخ المثاليات والمطلقات، ليعيد اللحظات الإنسانية العميقة التي تناساها الإنسان الحالي، وليحدث رؤية نقدية تعكس رغبة الإنسان الأصيلة في قلب هذه القيم التي اخترعها وصدقها وقدسها على الدوام، تلك القيم التي جعلت الإنسان يترفع ويتعالى على عالم حياته وعالم وجوده، هذا العالم وهذه الحياة التي تجذر الإنسان في مضامينها الحياتية العميقة قبل بواكير فلسفة سقراط، التي انتزعته شر انتزاع من تلك الكينونة وتلك الصيرورة، التي لاحت لنيتشه كطفل بريء يلهو ويلعب.

ثبت بالمصادر والمراجع:

أولًا: المصادر باللغة العربية:

1. نيتشه، فريدرش: أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

2. نيتشه، فريدرش: الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم: ميشيل فوكو، تعريب: سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1983.

3. نيتشه، فريدرش: هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، ط1، منشورات الجمل للطباعة والنشر والتوزيع.

4. نيتشه، فريدرش: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، 1938.

ثانيًا: المراجع باللغة العربية:

1. أوديف، ستيبان: على دروب زرادشت، ترجمة: فؤاد أيوب، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1983.

2. بلعقروز، عبد الرزاق: نيتشه ومهمة الفلسفة– قلب تراتب القيم والتأويل الجمالي للحياة، تقديم: عز العرب لحكيم بناني، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر.

3. دولوز، جيل: نيتشه ومهمة الفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.

4. زكريا، فؤاد: نوابغ الفكر الغربي 1: نيتشه، ط2، دار المعارف، مصر، 1966.

5. صليبا، جميل: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، جـ2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.

6. عبد اللطيف، نبيل: فلسفة القيم– نماذج نيتشوية، سلسلة المكتبة الفلسفية بإشراف: د. أحمد عبد الحليم عطية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

7. فاتيمو، جاني: نهاية الحداثة، ترجمة: نجم بو فاضل، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

8. فنك، أويغن: فلسفة نيتشه، ترجمة: إلياس بدوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974.

9. لوفيت، كارل: من هيغل إلى نيتشه: التفجر الثوري في فكر القرن التاسع عشر، ماركس وكيركيجارد، دراسات فكرية 2، جـ1، تعريب: ميشيل كيلو، ط1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988.

10. الشيخ، محمد: نقد الحداثة في فكر نيتشه، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

ثالثًا: الدوريات:

1. النمر، محمد نور: نيتشه وتقويض الميتافيزيقا في الفلسفة المعاصرة، مجلة نقد وتنوير، العدد الرابع، الفصل الأول، السنة الثانية، مارس- آذار، 216.

رابعًا: المصادر الأجنبية:

1. Nietzsche, F: Jenseit von Gut und Böse, Zur Genealogie der Moral, der Fall Wagner,Götzen-Dämmerung, der Antichrist, Werke, Band3, Frankfurt/Main, u.a.1972.

خامسًا: المراجع الأجنبية:

1. Fink, E: Nietzsches Philosophie, W. Kohlhammer Verlag, Stuttgart, Zweite unveränderte Auflage, 1968.

2. Nietzsche, F: Angele Kremer: Le Nihilisme Europeen {precede} Que Signifie, union Generale d'Editions, Paris, 1997.

www.almrsal.com/post/236493

www.dorar-aliraq.net/threads/368767.